مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويا

العدد الثالث
1986

- صدى الأدب العربي في الدعوة الإسلامية
- مخطوطات ليبية
- وصول الإسلام إلى ساحل مليبار
- التيارات الفلسفية وعلاقتها بالصراع على الحكم

صَدَى ٱلْأَدَبِ ٱلْعَرَبِيّ فِي ٱلدَّعْوَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

الأستاذ
محمد عثمان

تمهيد :

ما أن بعث الله تعالى رسوله الكريم إلى الناس كافة، وصدع الرسول ـ ﷺ ـ بما أمره به ربه ، وأخذ ينشر دعوة الاسلام بين الناس ، ووجدت هذه الدعوة قبولا من المسلمين الاوائل في مكة ويثرب حتى أخذت رحلة الادب العربي بشعره ونثره على يدي هؤلاء المسلمين تتفاعل مع هذه الدعوة وتعمل على ترسيخها وثبوتها في نفوس العرب آنذاك . غير ان هذه الرحلة التي بدأت والاسلام في اول عهده ، وشهدت صراع الاسلام والشرك في شبه جزيرة العرب ، وتأثرت بهذا الصراع وأثّرت فيه لم تتوقف حين حسم هذا الصراع

لصالح الاسلام ، ودخل العرب فيه أفواجا بل مضت مواكبة للاسلام في مراحله المختلفة وأحداثه المتوالية ، فقيام الخلافة الاسلامية بعد وفاة النبي - ﷺ - وما تلا ذلك من أحداث الردة ، وما أفضت إليه من حروب انتهت بحسم آخر لصالح العقيدة الاسلامية ، ثم ما كان من أمر الفتوحات الاسلامية التي مثلت دفعا جديدا لنقل الدعوة الاسلامية إلى خارج شبه جزيرة العرب ، وما كان للأدب شعرا ونثرا من دور فيها ، ومقتل عثمان رضي الله عنه ، وما نجم عنه من أحداث الفتنة الكبرى ، وانقسام المسلمين إلى فرق وأحزاب ، وقيام الدولة الاموية ، ونشوب فتن وثورات ضدها ، وتوالي الفتوحات الاسلامية في أقاليم وأمصار بعيدة عن شبه الجزيرة ، وما كان من أمر سقوط دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس ، وما تحقق فيها من انتشار للاسلام ، وتتابع الزمن بعد قيام هذه الدولة ، وتطور الاحداث التي أدت إلى ضعفها وانقسامها إلى امارات ودويلات متفرقة في الأمصار الاسلامية ، وصراع المسلمين مع الروم من جديد في عهد بني حمدان ، وزحف التتار على بلاد المسلمين ، وما تبعه من محنٍ وويلات ، وتجدد الزمن ليتمخض عن صراع جديد بين المسلمين والصليبيين قبيل دولة بني أيوب وابّانها ، وقيام صراع آخر في الاندلس نتيجة للزحف الصليبي المسيحي على ممالك المسلمين هناك . كل هذه الأحداث المتلاحقة عبر القرون كان للأدب العربي في مجالاته الثلاثة الشعر والخطابة والكتابة موقف منها وهو موقف يتصف في مساره بالوقوف دائما إلى جانب الدعوة الاسلامية والعمل على الدفاع عنها والتنبه إلى الأخطار المحدقة بها .

ولا شك أنَّ باحثا يتصدى لدراسة الأدب العربي وموقفه من الدعوة الاسلامية عبر هذه القرون المتلاحقة ، ويعكس من خلال دراسته مواقف الأدباء المسلمين عربا وغير عرب من هذه الدعوة وفق ما خلفوه من نتاج أدبي في هذا الخصوص يحتاج إلى عمل كبير وجهد متصل في متابعة العناصر الأساسية التي تشكل بحثه ، وتوظيف هذه العناصر توظيفا محكما يحقق الغاية المرجوة ، كما يحتاج إلى تجزئة عمله إلى أجزاء متتالية كل جزء يؤدي إلى الآخر ، وهي تجزئة ناتجة عما أشرنا إليه من أحداث تاريخية ذات صلة وثيقة بالدعوة الاسلامية ، ولا تعني هذه التجزئة أنَّ كل جزء منفصل عن الآخر ، لا يمت إليه بصلة ، وإنما تعني أننا نظرنا إلى عملنا من مختلف زواياه فوجدناه لا يحقق صورة كلية إلا إذا نظرنا إلى الأحداث التي مرت بها الدعوة الاسلامية عبر مراحل التاريخ المختلفة وهي مراحل تقتضي تجزئة البحث بالرغم من ادراكنا التام

بأن الدعوة إلى الاسلام في مجال الأدب العربي عمل موحد لا تجزئة فيه يمضي فيه الأدباء ـ المتقدمون منهم والمتأخرون ـ إلى سبيل واحد ذي غاية موحدة هي :

تأكيد العقيدة الاسلامية في نفوس الناس والعمل على إبقاء جذوتها التي أُشعلت على يدي الرسول الكريم بأمر من ربه حيَّة متَّقدة رغم وجود صعوبات وعقبات كان يصطنعها أعداء الاسلام وفق أحوال المسلمين قوة وضعفا .

وبناء على هذا التوضيح ونتيجة له رأينا أن نتناول هذه الدراسة وفق مرحلتين كبيرتين ، أطلقنا على الأولى منها **مرحلة الرسوخ والانتشار** وعلى الثانية **مرحلة الصمود والتصدي** ونعني بمرحلة الرسوخ والانتشار المرحلة التي شملت عهود النبوة والراشدين وبني أمية وبني العباس وهي العصور التي شهدت صراعات الدعوة في شبه جزيرة العرب وتتابع نشرها وانفتاحها على سائر الأمصار الإسلامية ونعني بمرحلة الصمود والتصدي المرحلة التي شملت عهود الأمارات والدول المتتابعة حيث بدأت الهجمات الشرسة على الدعوة الاسلامية من قبل الروم والتتار في العراق والشام وفارس وما وراءها ومن قبل الصليبيين في الشام والاندلس ،وهي العهود التي شهدت صراعات الدعوة وصمودها في وجه هذه الهجمات ، وما تبلور في هذه الصراعات من مواقف للمسلمين وأدبائهم وفق ما صاروا إليه من قوة أو ضعف وعلوٍ أو انحدر .

الادب والدعوة في مرحلة الرسوخ والانتشار

(أ) عهد النبوة والراشدين :

كان أول ما اضطلعت به دعوة الاسلام حين أنزل الله تعالى رسالته على محمد ﷺ هي الدعوة إلى التوحيد وحث الناس إلى الانصياع لعبادة إله واحد صمد لا معبود سواه . غير أن هذه الخطوة التي قام بها النبي بناء على وحي من ربه قد أحدثت تغييرا كبيرا في حياة القبائل العربية وقتذاك ، فقد انقسمت هذه القبائل إلى شطرين ، مؤمنين يدافعون عن العقيدة الجديدة ومشركين يصدون عن سبيلها ، وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الانشطار إلى صراع دموي قوامه الغزوات والسرايا التي حقق بها الرسول الكريم ومن تبعه من المؤمنين الرسوخ والثبات للدعوة الاسلامية في نفوس العرب أجمعين .

فإذا نظرنا إلى بدء فترة الدعوة إلى التوحيد ، وحاولنا بالتتبع أن نجد للأدب أثرا فيها وجدنا هذا الأثر مرتبطا بالأحداث التي تلت الجهر بالدعوة ، وكان الشعر أسبق من النثر في التفاعل مع هذه الأحداث ، غير أنه كان في بدئه يدور في فلك ضيق ونطاق محدود ، حيث كشف تتبعنا في هذا المضمار أن أول شعر قيل بأثر من الجهر بالدعوة صدر عن رجلين لم يدخلا في الاسلام ، أحدهما أبو طالب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، والآخر أبو قيس بن الأسلت الأوسي . فأما أبو طالب فقد حرّكه إلى قول الشعر مغالاة قريش في عداوتها للنبي وأصحابه حين جهر بالدعوة فقال في ذلك قصيدة طويلة أشار إليها ابن سلام في طبقاته وقال إنها أبرع ما قال أبو طالب من شعر[1] وقد أورد ابن هشام منها أربعة وتسعين بيتا في السيرة النبوية[2] وأما أبو قيس بن الاسلت فقد وصفه محمد بن اسحق بأنه كان يحب قريشا ، وكان لهم صهرا ، فلما بلغه وهو بيثرب ما صارت إليه قريش من عداوة للنبي وأصحابه من قريش أرسل إليهم قصيدة بلغت في رواية ابن هشام خمسة وثلاثين بيتاً يقول في مطلعها :

يا راكباً إمَّا عرضت فَبَلِّغَنْ ... مُغَلْغَلَةً عني لؤيَّ بن غالب

وفيها يخاطب قريشاً ، ينهاها عما صدر منها من معاداة النبي القرشي ومن تبعه من القرشيين .

أعيذكم بالله من شرِّ صنعكم ... وشرِّ تباغيكم ودسِّ العقارب

واظهار أخلاقٍ ونجوى سقيمةٍ ... كوخز الأشافي وقعها حق صائب[3]

وبجانب هذين الرجلين نجد رجلا آخر يختلف عنهما في أنه قال شعره هذا بعد أن دخل في الاسلام ـ ذلك هو حكيم بن أمية الذي كان يعيش في مكة حليفا لبني أميةَ بن عبد شمس وكان فيهم شريفاً مطاعاً ، فقال أبياتا أربعة رواها ابن اسحق وأثبتها ابن هشام في السيرة ، نراه يروِّع فيها قومه عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله ﷺ ويؤكد وقوفه إلى جانب الدعوة الاسلامية وإن اضطر إلى هجر حلفائه

(1) طبقات الشعراء ط. دار الكتب العلمية بيروت ص 95.

(2) سيرة ابن هشام ط. دار الجيل بيروت ج 1 ص 25.

(3) ينظر المصدر السابق ص 254 وما بعدها، وأراد بالمغلغلة الرسالة المحمولة من بلد الى بلد، ولؤي بن غالب قريشا، وبالأشافي المخارز التي يخرز بها الاشياء.

وأنه لن يضيره ما يروعه من هؤلاء الحلفاء ما دام قد أسلم وجهه ومنطقه لله تعالى يقول :

هـل قـائـل قـولا من الحق قـاعـد ... عليـه وهـل غضبـان للرشـد سـامـع
وهـل سيـد تـرجـو العشيـرة نفعـه ... لاقصى المـوالي والأقـارب جـامـع
تَبرَّأتُ إلاَّ وَجْـهَ من يملك الـصَّبـا ... وأهـجـركـم مـا دام مُـدْلٍ ونـازِعُ
وأسـلم وجـهـي لـلالـه ومنـطقـي ... ولـو راعني من الصـديـق روائـع[4]

هذه الأبيات هي أول ما ظفرنا به من أثر للدعوة في وجدان شاعر مسلم وهي تسجل معلما بارزاً في ان الشعر ـ كما قلنا ـ كان أسبق من النثر في الوقوف إلى جانب الدعوة ، وذلك لأن النثر لم تكن دواعيه قد تبلورت بعد في عقول المسلمين الأوائل ووجداناتهم ،وهذه الأبيات التي رصدنا فيها بدءاً لوقوف الشعر إلى صالح دعوة الاسلام قد مثلت بداية سيل منهمر من الشعر صدر عن شعراء المسلمين الأوائل عبر الأحداث التي تلت الجهر بالدعوة ، فحين هاجرت جماعة من الصحابة الأوائل من مكّة إلى الحبشة وجد شعر يؤكد وقوف أصحابه مع الإسلام بالرغم من إحساسهم بالغربة والبعد عن ذويهم وأوطانهم ، ولكنهم وهم المتمسكون بالدعوة المهاجرون من أجلها يتناسون غربتهم وبعدهم ، ويعبرون عن أمنهم وسلامهم في وجودهم أرضا يعبدون فيها الله دون خوف أو احساس بذلة وهوان . هذا ما عبر عنه عبد الله بن الحارث بن قيس في شعره الذي قاله بالحبشة ، وبعثه في صورة رسالة إلى من تركوهم من أخوة في الاسلام بمكة .

يـا راكبـاً بَـلِّغَـنْ عنـي مُـغَـلْغَـلَةً ... مَنْ كـان يَـرْجُـو بـلاغَ اللَّهِ والـدِّين
كُـلَّ امرىءٍ من عبـادِ الله مُضْـطَهَـدٍ ... بـبـطن مـكـة مـقـهـورٍ ومـفـتـونِ
انَّـا وجـدنـا بـلاد اللـه واسـعـةً ... تُنْجِي من الـذُلِّ والمخـزاةِ والهُـونِ

ويشير فيها إلى اتباعهم رسول الله في هذه الهجرة وإلى موقف المشركين من الدعوة داعيا عليهم بالعذاب مستعيذا بالله من أن يفتنوه في دينه وفي ربه يقول :

انـا تـبعـنـا رسـول الله واطـرحـوا ... قـول النبي وعـالـوا في المـوازين

(4) ينظر المصدر عينه ص 258 والمدلى المرسل الدلو في البئر، والنازع الجاذب لها.

فاجعل عـذابك في القـوم الذين بغـوا وعـائـذاً بـك أن يغلو فيـطغـوني[5]

وكذلك سجل الشعر وقوفا إلى جانب الدعوة حين بدأت الهجرة إلى يثرب ، كان ذلك على لسان أبي أحمد بن جحش بن رئاب ، أحد بني غنم بن رودان بن أسد الذين كانت لهم سابقة في الاسلام وفي الهجرة[6] فقد قال أبو أحمد بن جحش أكثر من قطعة رواها ابن هشام في السيرة ورواها ابن عبد البر في الاستيعاب ، ومن هذه القطع قطعة يؤكد فيها انصرافه بوجهه إلى الله ورسوله حين نأى بوجهه عن موطنه طلبا للرغائب التي وعد الله بها عباده المؤمنين ، ويشير فيها إلى دعوته قومه بني غنم إلى حقن دمائهم بالهجرة وإلى اتباع طريق الحق بعد أن وضح هذا الطريق وبان ، كما يشير إلى ما صارت إليه قريش من فريقين، فريق تمسك بالهدى وفريق فارقه، فكان نصيب الاول الهداية والتوفيق ، ونصيب الثاني النكال والتعذيب يقول :

إلى الله وجهي والـرسـول ومن يـقمْ إلـى الله يـومـاً وَجْـهَـهُ لا يُـخَـيَّـبُ
فكم قـد تـركنـا من حميمٍ ونـاصـحٍ ونـاصحـةٍ تبكي بـدمـعٍ وتنـدبُ
تـرى أنَّ وتـراً نـأينـا عن بـلادنـا ونحن نـرى أنَّ الـرغـائـب تُـطْلَبُ
دعـوتُ بني غَـنْمٍ لـحقـن دمـائهـم ولـلحقِّ لـمَّـا لاح لـلنـاس مَـلْحَـبُ
أجـابـوا بحمـد الله لـمَّـا دعـاهم إلى الحق داعٍ والنـجـاح فـأوعبـوا
وكنَّـا وأصحـابـاً لنـا فـارقـوا الهـدى أعـانـوا علينـا بـالسـلاح وأجلبـوا
كـفـوجيـن أمَّـا منـهـمـا فـمـوفـقٌ على الحقِّ مهـديٌّ وفـوج معذَّب[7]

وإذا كان هذا الشعر قد صدر من قرشي بالحلف مهاجر من مكة إلى يثرب فإن الشعر لم ينتف من أهل يثرب أنفسهم الذين هاجر إليهم النبي الكريم وصحبه ، فقد حفظ لنا ابن حجر صاحب « الاصابة » . شعرا قاله أبو قيس صرمة بن أنس من بني النجار الذي كان يعيش في يثرب ، وكان من المعدودين في الحنفاء قبل الاسلام . ذكروا أنه اعتزل الناس في بيت اتخذه مسجداً وقال : (أعبد رب إبراهيم وأنا على دين إبراهيم)، وظل كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ فأسلم على يديه وحسن

(5) المصدر عينه ص 286.
(6) أسد الغابة ط طهران ج 1 ص 25.
(7) ينظر سيرة ابن هشام ج 2 ص 84، والاستيعاب لابن عبدالبر ط. السعادة مصر ج 1 ص 202.

اسلامه[8] ، وكان شاعراً يقول الشعر ، غير أنه فيما يبدو من شعره لم يكن من المجيدين فيه ومع ذلك فقد استطاع بما أوتي من مكنة فنية أن يسجل لنا موقفه من هجرة النبي عليه السلام ، وأن يعبر في شعره عن الترحاب الذي لقيه ولقيته دعوته من أهل يثرب ، وأن يقارن بين ما كان يلقاه في مكة من قريش وما وجده الآن بعد هجرته ، إذ ظل يدعو قريشا ويدعو الناس في المواسم قرابة الثلاثة عشر عاماً دون أن يجد لدعوته عوناً أو تأييداً ، وها هو الآن في يثرب يجد اظهاراً من الله لهذه الدعوة ويجد الصديق الذي يطمئن إليه في هجرته والعون الذي يحتاج إليه في دعوته يقول أبو قيس :

ثوى في قريش بضع عشرة حِجَّةً ... يُذَكِّر لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نَفْسَه ... فلم ير من يؤوي ولم ير راعيا
فلما أتانا اظهر الله دينه ... فاصبح مسرورا بطيبة راضيا
والفى صديقاً واطمأنت به النَّوَى ... وكان له عونا من الله باديا

ويؤكد في بيت منها أنه ومن معه سوف يقفون معضدين دعوة الاسلام ، يعادون من يعاديه الرسول وإن كان من اصفى الأصفياء وأخلص الاصدقاء : ـ

نعادي الذي عادى من الناس كلهم : ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا[9] .

الغزوات والسرايا :

ولعل اكثر شعر وصل إلينا في هذه المرحلة معبراً عن التحام شعراء المسلمين الأوائل بالاسلام وتمسكهم بدعوته هو ذلك الشعر الذي صدر حول غزوات النبي وسراياه . ذلك أن قريشا بشعرائها قد حولت طغيانها الحربي الذي وجهته إلى النبي الكريم والمسلمين إلى طغيان قولي حيث سلطت شعراءها نحو النيل من رسول الله ﷺ ومن تبعه من المهاجرين والانصار ، فساء ذلك الرسول الكريم لأنهم لم يعمدوا إلى هجائه وهجاء أصحابه فحسب بل عمدوا وراء ذلك إلى الصدِّ عن الدعوة بهذا

(8) الاصابة لابن حجر ط . السعادة مصر ج 1 ص 183 .
(9) ينظر قصيدته كاملة في سيرة ابن هشام ج 2 ص 114، وفي الاستيعاب ج 1 ص 203 ونسبت الابيات إلى حسان بن ثابت في ديوانه ج 1 ص 94 .

الشعر الذي تحمله الركبان ، فينتشر بين القبائل ، فيكون ذلك مانعا لها من أن تدخل في الاسلام خوفا على أعراضها من أن ينالها هؤلاء الشعراء بألسنتهم ، ولذا رأينا رسول الله ﷺ يقول لاصحابه من الأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم » فلما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه . أنا لها يا رسول الله قال له : «اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك[10] فتصدى لهم حسان بالهجاء وانضم إليه كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فكان أن صدر شعر كثير بين الفريقين يهمنا منه ما جاء داعيا للدعوة ومثبتا لعقيدة الاسلام ، وهو الشعر الذي كان يحمل في ثناياه معاني الحث على التمسك بالاسلام والتصدي لمن يناله بالطعن والقدح ، منه شعر لعبد الله بن رواحة يقول فيه مخاطباً أبا سفيان بن حرب ، ومقررا في تأكيد فداءه رسول الله بأهله وماله ، وحرصه ومن معه على طاعته وعدم العدول بغيره ، فهو الشهاب الذي يهديهم من ظلمة الشرك الحالكة يقول ابن رواحة :

عصيتم رسول الله أفٍ لدينكم ... وأمركم السوء الذي كان غاوياً
فإني وإن عنفتموني لقائل ... فدى لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغيره ... شهابا لنا في ظلمة الليل هاديا[11]

ومثل هذا الاتجاه في الحث على الدعوة والدخول في عروة الدين نجده في قصيدة لكعب بن مالك ، وجهها إلى ثقيف حين فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين وأزمع التوجه إلى غزو ثقيف بالطائف فقال كعب محاولا أن يوظف فنّه في دعوة أهل الطائف إلى الصلح والدخول في دين الله : ـ

أجدهم أليس لهم نصيحُ ... من الأقوام كان بنا عريفا
يخبرهم بأنا قد جمعنا ... عتاقَ الخيل والنجب الطروفا
وأنا قد أتيناهم بزحفٍ ... يحيط بسور حصنهم صفوفا
رئيسهم النبي وكان صُلْبًا ... نقيَّ القلب مصطبراً عزوفا

(10) ينظر الأغاني ط. ساسي ج 4 ص 137 . والاستيعاب لابن عبدالبرج 1 ص 94 .

(11) ينظر سيرة ابن هشام ج 3 ص 124 . وقال ابن هشام إنّ أبا زيد الأنصاري أنشدها لكعب بن مالك وهي في معانيها أشبه بشعر ابن رواحة لأن كعبا كان مثل حسان يرمي قريشا بالمناقب والانساب .

رشيدَ الأمر ذا حُكْمٍ وعِلْمٍ ... وحِلْمٍ لم يكن نَزِقاً خفيفا
نطيع نبينا ونطيع ربا ... هو الرحمن كان بنا رؤوفا
فإن تلقوا الينا السلم نقبل ... ونجعلكم لنا عضدا وريفا
وان تأبوا نجاهدكم ونصبر ... ولا يك أمرنا رعشا ضعيفا
نجالد ما بقينا أو تثيبوا ... إلى الإسلام اذعاناً مضيفاً[12]

وحين غدر يهود بني قريظة بالرسول والمسلمين يوم الخندق ووالوا قريشا في حربها ومحاصرتها مدينة الرسول قال حسان بن ثابت مشيرا إلى غدرهم بعهد رسول الله ومؤكدا حقيقة أن دعوة الاسلام ثابتة في التوراة التي أضاعها بنو قريظة أو عموا عما فيها من اقرار بدعوة الاسلام ، فكفروا بالقرآن الذي أنزل على محمد ، الذي هو مصدق به من قبل التوراة ، قال حسان :

تفاقد معشر نصروا قريشاً ... وليس لهم ببلد تهم نصيرُ
هم أُوتوا الكتاب فضيعوه ... وهم عُمْيٌ عَنِ التوراةِ بُورُ
كفرتم بالقرآن وقد أتيتم ... بتصديق الذي قال النذير[13]

والحق أنَّ شعر الغزوات والسرايا يزخر بمعاني التمسك بالدعوة ، والعمل على الدفاع عنها ، والذود عن عقيدتها ، فلقد سخر الشعراء كلَّ جهودهم الأدبية في النيل من خصوم الاسلام وفي تأكيد أنَّ دعوة الاسلام هي الحق وما عداها هو الباطل ، وأن عبادة غير الله من مثل اللات والعزى وغيرهما من الاصنام والأوثان لن تفيد المتمسكين بها شيئاً . مثل هذه المعاني وغيرها نجدها مبثوثة في شعر الغزوات والسرايا . ونجدها أيضاً في شعر بعيد عن الغزوات . نجدها مثلا عند بجير بن زهير بن أبي سلمة أخي كعب وكان بجير قد سبق أخاه كعبا إلى الإسلام ، فأرسل إليه كعب يعاتبه على ترك دين آبائه واتباعه ما جاء به محمد ، فرد عليه بجير بأبيات رواها لنا ابن هشام في السيرة ، وهي أبيات فيها دعوة من أخ لأخيه إلى الدخول في الاسلام ، فالدخول في الإسلام هو الرأي الاحزم الذي ينبغي أن يتبعه أخوه ، لا أنْ

(12) المصدر السابق ج 4 ص 91، والريف الأرض المخصبة المنزرعة خارج المدن، يريد أن يجعلها عونا لهم مستحدثين عيشا من ريفهم والرعش المنقلب، والمضيف الملجأ.
(13) المصدر نفسه ج 3ص 169 .

يلومه باطلاً فيما أقدم عليه ، وهو الرأي الأحزم لأنْ فيه نجاة له من عذاب يوم لا ينجو فيه إلا المسلم الطاهر القلب يقول بجير راداً على عتاب أخيه :

مَنْ مُبْلِغٌ كعباً فهل لك في التي ... تلوم عليها باطلاً وهي أَحزمُ
إلى الله ـ لا العزى ولا اللات ـ وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يَوْمٍ لا ينجو وليس بمفلت ... من الناس إلا طاهرُ القلب مُسْلِمُ[14]

ولم يكن موقف بجير من أخيه كعب حين دعاه إلى الاسلام ونبذ الشرك هو الموقف الوحيد الذي سجلته لنا كتب التاريخ والسير وأخبار الرجال بل ثمة مواقف عديدة زخرت بها هذه الكتب نلمس من أصحابها توظيف الشعر في دعوة أهلهم وذويهم إلى الاسلام ، فهذا الأصيد بن سلمة يأسره المسلمون في احدى سراياهم ، ويؤتى به إلى النبي ﷺ ، فيرق الرسول الكريم لحاله ويدعوه إلى الاسلام فيسلم ويطمئن قلبه إلى ما دخل فيه من دين ، ويستقر بين الصحابة الأبرار في يثرب ، فيسمع أبوه الشيخ بخبره فيرسل إليه يعاتبه على اسلامه ، فيتحرك لسان الأصيد بشعر يرد فيه على أبيه ، منه هذان البيتان :

إن الذي سمك السماء بقدرةٍ ... حتى علا في مُلْكِه وتوحدا
بعث الذي ما مثله فيما مضى ... يدعو لرحمته النبي محمدا

ويصل شعر الابن إلى الأب فيوثر فيه ويتغلغل في وجدانه فلا يملك إلَّا أنْ يقبل إلى رسول الله ﷺ ، يعلن اسلامه في صدق وينضم مع ابنه في ركاب المؤمنين[15] .

(ت) قيام الخلافة وحروب الردة :

فإذا مضينا قليلا ووقفنا عند قيام الخلافة الاسلامية بعد وفاة النبي ﷺ وارتداد العرب عن الاسلام بعد الحدث الجليل ، وظهور المتنبئين بين القبائل ، طُلَيْحَةُ بن خويلد الأسدي ، وسجاح ، ومسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي وجدنا من شعراء المسلمين من يهب بفنه وشعره مدافعا عن الاسلام واقفا بصلابة في وجه هذه الردة التي اجتاحت القبائل العربية وذلك مثل جعونة بن مرثد الأسدي الذي هاله اتباع

(14) المصدر نفسه ج 4 ص 108 .
(15) الاصابة لابن حجر ج 1 ص 53 .

قومه طليحة بن خويلد فقال مُوَبِّخاً فيهم هذا الصنيع .

بني أسـد قـد سـاءني مـا فعلتم ولـيس لـقـوم حاربوا الله مـحـرم
فـإنِّي وإنْ عـبـتـم عـليَّ سـفـاهـة حنيفٌ على الـدِّين القويمِ ومُسْلِمُ[16]

ومثله حبيش الأسدي الذي كان يحث بني أسد على الاسلام وواجه طليحة بالتكذيب وانشد له في ذلك أشعاراً منها قوله :

شـهـدتُ بـأنَّ الله لا رَبَّ غَـيْـرُه طُلَيْـحُ وأن الـدِّينَ دينُ مُحَـمَّـدِ[17]

وفي اليمامة حيث مسليمة الكذاب كان هناك شعراء وقفوا في وجهه يدعون الناس إلى التخلي عنه والرجوع إلى حظيرة الاسلام ، منهم صهبان بن شمر الحنفي اليمامي الذي أرسل إلى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه شعراً يؤكِّدُ فيه تمسكه بالدين وبراءته مما يدعيه مسليمة ، .

إنِّي بـريءٌ إلى الـصـديق مـعـتـذرٌ ممـا مسليمـةُ الكـذَّابُ ينتحـلُ[18]

لقد حفظ لنا ابن حجر في الاصابة وابن عبد البر في الاستيعاب شعراً كثيراً صدر عن شعراء مسلمين عاشوا أيَّام الردة وفتنة القبائل على يدي هؤلاء المتنبئين ، فسخَّروا شعرهم وفنهم في سبيل الوقوف إلى جانب الدعوة الاسلامية ، وحاولوا جهدهم أنْ يصرفوا الناس عن الرِّدَّةِ والعودة إلى الإسلام ثانية يؤكد هذا ما سبق من أمثلة ، ويؤكده أيضا ما ورد عن عبدالله بن الأرحبي ، وقد كان خطيباً شاعراً رأى قومه همدان يريدون أن يتركوا الاسلام عودة إلى الكفر وانسياقا وراء الأسود العنسي وقيس بن عبد يغوث ، فتصدى لهم مستغلاً مكنته في الخطابة والشعر يقول لهم : « يا معشر همدان أنكم لم تعبدوا محمداً وإنما عبدتم رب محمد ، واعلموا أنه استنقذكم من النار ، ولم يكن الله ليجمع أصحابه على ضلالة » ثم دعم هذا القول النثري بقول شعري جاء فيه :

لعمـري لئـن مـات النـبي مـحمـد لمـا مـات يـابن القيـل رب محمـد

(16) المصدر نفسه ج 1 ص 192 .
(17) المصدر عينه ج 1 ص 244.
(18) الاصابة ج 2 ص 192.

دعـاه إلـيـه ربـه فـأجـابـه فيا خير غوري ويا خير منجد[19]

(ج) الفتوحات الاسلامية :

وإذا كانت أحداث الهجرة والغزوات وقيام الخلافة وما تبعها من ردة قد سجلت مواقف طيبة للشعراء المسلمين في وقوفهم الدائم مع دعوة الاسلام فإن الفتوحات الإسلامية التي بدأت في خلافةِ أبي بكر ، وتوالت بعد ذلك قد سجلت هي الأخرى مواقف تتصف بروح التضحية والحرص على تحقيق أن تكون كلمة الله هي العليا ، فقد كان الرجل المسلم يخرج من بيته لا يلوي على شيء سوى انسياقه لنداء الحق والجهاد . هذا النابغة الجعدي يترك أهل بيته ويستجيب إلى داعي الجهاد غير ناظر إلى بكاء زوجه وهي تحاول منعه من الخروج ، بل يقول بقلب الشاعر المؤمن الذي يعرف حق الله قبل أن يعرف حق نفسه ونوازعها :

بَـاتَـتْ تُـذَكِّـرُنِـي بـالله قـاعِـدةً والـد مـع ينهـلُّ من شـأنيهمـا سُبَـلا
يـا بنت عمي كتـاب الله أخـرجني كـرهـا وهـل أمنعـن الله مـا بـذلا
فـإن رجعتُ فـربُّ النَّـاسِ أَرْجَعَنِي وإنْ لـحقتُ بـربي فـابـتغي بَـدَلا
مـا كنت أعـرج أو أعمى فيعـذرني أو ضارعاً من ضنىً لم يستطع حولا[20]

ولقد أوردت لنا المصادر الكثير من الشعر الذي عبر عن صراع عاطفي بين الأبناء الشباب والآباء الشيوخ، فقد لبى شباب المسلمين نداء الحق في الجهاد ونشر دعوة الاسلام ، تاركين آباء وأمهات قد بلغت السن فيهم مبلغا ، وكان هؤلاء الشيوخ حريصين على ألا يفارقهم أبناؤهم إلى الجهاد لاحساسهم بالعوز إليهم والعجز عن مواجهة الحياة بدونهم غير أنَّ الأبناء الشباب كانوا يرون أنَّ داعي الجهاد فوق العواطف وفوق حاجات الآباء والأمهات . مثل هذا الصراع العاطفي نجده في شعر المُخَبَّل السعدي الذي رواه أبو الفرج في الأغاني[21] ، وكذلك في شعر أمية بن حرثان الذي رواه أبو الفرج أيضاً[22] .

(19) المصدر نفسه ج 2 ص 265.
(20) الشعر والشعراء لابن قتيبة ط دار الافاق بيروت ج 1 ص 212.
(21) الأغاني ط ساسي ج 12 ص 38. والشعر والشعراء ج 1 ص 333.
(22) الأغاني ج 18 ص 157.

ومثل هذه الأشعار التي سجلت لنا مواقف عاطفية تتصل بالرجل وأهله وذويه حين يخرج إلى الجهاد تؤكد لنا حقيقة مهمة هي أن اندفاع المسلمين الأوائل إلى الجهاد في سبيل الله لم يكن حباً في الغزو وتهافتا إلى المكاسب والمغانم أو أرضاء لغريزة القتال المتسلطة على طباعهم كما يزعم أعداء الاسلام وإنما كان جهادا في سبيل الله ملؤه العقيدة الصادقة ، والايمان الحق الذي يدفع صاحبه إلى الاستشهاد طمعاً في رضوان الله والظفر بما وعد به من حسن الجزاء . هذا ما يؤكده شعر هؤلاء المجاهدين ، مثل عروة بن زيد الخيل الذي خاض معركة نهاوند مع المسلمين ضد الفرس ، وأبلي فيها بلاء حسنا ، فهو يصور بلاءه ، ويصور غايته من جهاده ، وهي غاية تنأى من مطامع الدنيا ، وما يتصل بها من غنائم ومكاسب . أنها غاية مسلم وهب نفسه لله لا يبغي من ذلك ثروة مع توفر الثروة لديه كاثره من خلال الحروب التي خاضها في هذا الجهاد يقول عروة :

ولما دعوا يا عروة بن مهلهل ... ضربت جموع الفرس حتى تولت
دفعت عليهم رحلتي وفوارس ... وجردت سيفي فيهم ثم آلتي
وكم من عدوٍّ أشوس متمردٍ ... عليه بخيلي في الهياج أظلَّتِ
وكم كُرْبَةٍ فَرَّجْتُها وكريهةٍ ... شددتُ لها أزري إلى أنْ تجلَّتِ
وقد أضحت الدنيا لديَّ ذميمة ... وسَلَّيْتُ عنها النفس حتى تسلَّتِ
وأصبح همي في الجهاد ونيتي ... فلله نفس أدبرت وتولتِ
فلا ثروة الدنيا نريد اكتسابها ... ألاَ أنَّها عن وفرها قد تجلَّت[23]

إن فكرة ارتباط الفتوحات الاسلامية بالجهاد في عقل الفرد المسلم ووجدانه هي التي دفعته دائما إلى الحرص على الموت ، وهذا ما يدحض قول اعداء الاسلام في أن هذه الفتوحات كانت بدافع رغبة في المغنم أو غريزة متأصلة لحب القتال فمن المسلم به أن الذي يخرج طمعا في المكسب والمغنم يكون أحرص الناس على الحياة أما أن يحرص على الموت فهذا ما يدحض هذا القول . هذا عبد الله بن سبرة . الحرشي ـ مثل من أمثلة كثيرة يمكن أن نضربها في هذا المقام ـ يخوض معركة في يوم « فلطاس » ضد الروم في فتوحات الشام ، يلتقي فيها بفارس رومي فيصيب الرومي بعضاً من

(23) الأخبار الطوال للدينوري تحقيق عبدالمنعم عامر ط. وزارة الثقافة والارشاد مصر ص 138.

يده ، فيقول شعرا يؤكد فيه حرصه على أنّ يلحق بيده التي ذهبت منه قوله :

يُمْنَى يـدِيَّ غَـدَتْ منـي مُفَـارِقَـةً لم استـطعْ يـوم فِلْطَاسٍ لهـا تبعـا
ومـا ضَنَنْتُ عليـهـا أَنْ أُصَـاحِبَـهَـا لَقَدْ حَرَصْتُ على أنْ نستريحَ معا[24].

مجال النشر : ـ

هذا في مجال الشعر الذي قلنا أنه كان أسبق من النثر في التأثر بأحداث الدعوة والمشاركة فيها أما في مجال النثر فإن رحلته في سبيل الدعوة لم تتضح الاَّ بعد أن استقر المسلمون في يثرب ، وبدأ الرسول ﷺ يضـع الأسس التي تقوم عليها دولة الاسلام ، وهذا القول لا يجعلنا نغفل عن أن رسول الله ﷺ كان يدعو ـ وهو في مكة ـ القبائل إلى الاسلام بكلام نثري ، غير أن هذا وأن وصلنا الخبر عنه فإنه لم يصل إلينا ما يمكن أن نعتبره نصوصا أدبية نقرر في ضوئها شيئا في هذا المقام . أما حين هاجر الرسول إلى يثرب وشرع في أنشاء دولة الاسلام بدأت حينذاك رحلة النثر في خدمة الدعوة على لسانه ﷺ وعلى ألسنة خلفائه من بعده ، ففي أول خطبة جمعة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة نراه يركز على دعوة المسلمين من المهاجرين والانصار إلى التمسك بتقوى الله التي هي جماع الامور وزمامها ، ويدعوهم إلى الوقوف إلى جانب دعوة الاسلام ، بأن يعادوا أعداءها ويجاهدوا في سبيلها حق الجهاد ، قال عليه السلام : «ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ، وأن تقوى الله يوقي مقته ، ويوقي عقوبته ، ويوقي سخطه . وأن تقوى الله يبيض الوجـوه ويرضي الـرب ، ويرفـع الدرجـة خذوا بحـظكم ولا تفرطوا في جنب الله قد علمكم كتابـه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صـدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعـداءه ﴿وجاهـدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ﴾[25] وسماكم المسلمين ، ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾[26] ولا قوة إلا بالله »[27] .

وفي خطبته التي قالها في حجة الوداع نراه حريصا على الاَّ يعـود المسلمون من بعده كفاراً يتركون سبيل الدعـوة ، فيؤدّي ذلك إلى قتـل بعضهم بعضا ، كـما نراه

---

(24) الأمالي لأبي علي القاري ط دار الآفاق بيروت ج 1 ص 47.
(25) سورة الحج الآية 78.
(26) سورة الأنفال الآية 42.
(27) ينظر الخطبة كاملة في تاريخ الطبري ط دار المعارف مصر ج 2 ص 229.

حريصا على أن يستمسك المسلمون بالوحدة التي حققها لهم الاسلام وذلك بتأكيده مبدأ المساواة بين الناس جميعا يقول ﷺ « فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . أيها الناس ربكم واحد وأن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى »[28] فكأنه عليه الصلاة والسلام قد رمى بدعوته المسلمين إلى الاستشعار بأنهم متساوون عند الله جميعا أنْ يحقق فيهم الوحدة عربا وغير عرب حتى يحققوا بوحدتهم بقاءً لدعوة الاسلام ونشراً لها في الارض ، ومن البديهي أن أية دعوة لن تضمن البقاءولن تحقق الاستمرار والسريان إلا إذا توحد أهلها وصاروا يداً واحدة في وجه أية قوة تحاول التصدي لدعوتهم أو الحد من انتشارها .

وعلى هذا النهج الذي سلكه الرسول ﷺ في خطبته ومواعظه سار الصحابة من بعده ، فقد كانوا حريصين على تحقيق جميع المعاني التي سجلها القرآن بكلماته والتي قررها الرسول الكريم في أحاديثه وأعماله ، وهي معان تحقق في جملتها للاسلام عزاً وبقاءً ولدعوته خلوداً وانتشاراً فخشية الله ، وبغض الدنيا ، والحرص على العمل في سبيل الآخرة ، ونداء الجهاد لحماية العقيدة ، والمحافظة على المؤاخاة والمؤازرة إلى غير ذلك من المعاني التي كثيراً ما نجدها مبثوثة في خطب خلفاء الرسول وأصحابه ولا غرو في ذلك فقد قال المسعودي في مروج الذهب أن « الأشياء التي استحق بها أصحاب رسول الله ﷺ الفضل هي : السبق إلى الايمان والهجرة ، والنصرة لرسول الله ﷺ ، والقربى منه ، والقناعة ، وبذل النفس له والعلم بالكتاب والتنزيل ، والجهاد في سبيل الله ، والورع ، والزهد ، والقضاء والحكم ، والفقه ، والعلم »[29] فإذا كانت هذه هي الصفات التي فضلوا بها الناس جميعا فمن الطبيعي أن يكونوا أحرص الناس على إبقاء الاسلام حيا مستمرا ، وأن تسجل خطبهم وأقوالهم المعاني الدالة إلى ذلك . وهذا علي رضي الله عنه يطعنه غدراً عبد الرحمن بن ملجم ، فَيُحِسُّ بدنو أجله فلا يجد ما يوصي به أصحابه وأهل بيته سوى أن يدعوهم بكلمات واضحة وأسلوب سليم إلى التمسك بالاسلام وعدم الشرك بالله حرصاً منه على بقاء

---

(28) البيان والتبيين ط عطوي بيروت ج 2 ص 229 .

(29) مروج الذهب ط دار الكتاب اللبناني بيروت ج 2 ص 710 وما يليها .

الدعوة وديمومتها في الأرض قال : « أما وصيتي فالله لا تشركوا به أحدا ، ومحمداً لا تضيعوا سنته ، اقيموا هذين العمودين ، حمل كل امريء منكم مجهوده ، وخفف عن الحملة رب رحيم ، ودين قويم ، وامام عليم »[30] .

وحين بدأ جهاد المسلمين في حروب الفتوحات سجل القادة من الصحابة بنشرهم القولي معاني تدعم روح الجهاد في نفوس المجاهدين ، وتجعلهم يتوقون إلى تحقيق الشهادة أو النصر حرصاً منهم على نشر دعوة الاسلام وتوطيد دعائمها في الوجود . ففي حرب القادسية نرى عمر رضي الله عنه يوصي قائده بما يحقق له النصر يقول له ـ وهو يشايعه في السير قبل أن يمضي إلى القادسية : « أني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يخلعني منه إلا الحق ، فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، وأعلم أن لكل عادة عتادا ، فعتاد الخير الصبر ، فاصبر على ما أصابك أو أنابك تجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين هي طاعته واجتناب معصيته »[32] .

وحَرِيٌّ بقائد مقبل على عمل فيه اعلاء لكلمة الله أن يتزود بمثل هذه الوصية ، فتعويد نفسه وجيشه على عمل الخير يعود إلى الصبر ، وناهيك بالصبر من سلاح يقبل به قائد وجيشه إلى حرب ، إذ بالصبر على مكاره هذه الحرب تجتمع خشية الله المتمثلة في طاعته واجتناب معصيته ، وفي خشية الله ما يجعل القائد وجيشه يستشعرون الله دائما في كل خطوة يخطونها في ضربة سيف ، أو طعنه رمح ، أو خطة كَرٍّ وفَر . وفي هذا جميعه ما يحقق النصر ويكفل للإسلام علوا ولكلمته بقاء .

ولقد كانت حرب القادسية التي خاضها المسلمون مجاهدين في سبيل الله مجالاً طيباً للنثر القولي المتمثل في خطابة الحث على الجهاد ، ففي أول يوم من الأيَّام وقف عاصم بن عمرو يقول للمجاهدين « يا معاشر العرب أنكم أعيان العرب وقد قصدتم لأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ، ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم امراً تكونون به شيئاً على العرب غدا» وشاركه في هذا المجرى من الكلام ربعي بن عامر الذي قال : « أن الله قد هداكم للاسلام ، وجمعكم به ، وأراكم الزيادة ، وفي الصبر راحة فعوِّدوا أنفسكم الصبر

(30) مروج الذهب ج 2 ص 709 وما يليها .
(31) تاريخ الطبري ج 3 ص 483 .
(32) المصدر نفسه ج 5 ص 532 وما يليها .

تعتادوه ، ولا تُعَوِّدوها الجزع فتعتادوه »[33] .

وفي كلام الرجلين ما يغني عن الشرح والتوضيح لأنه جاء حضاً على شيء أشربت عليه نفوس المجاهدين ، فالمخاطرة بالجنة التي وردت في كلام عاصم بن عمرو ، وتعويد النفس على الصبر الذي جاء في كلام ربعي بن عامر هما من الأمور التي امتزجت بنفوس المجاهدين وهم يندفعون إلى خوض معاركهم ضد الفرس ، وهم ما خاضوا هذه الحروب إلاَّ لمحو الشرك من الأرض وليكون الدين كله لله . هذا ما يتضح من كلام رسول سعد بن أبي وقاص قائد القادسية إلى رستم قائد الفرس . فقد سأل رستم الرسول ـ وهو ربعي بن عامر ـ عن سبب مجيء المسلمين إلى هذه النواحي فأجابه ربعي متكئا على رمحه المركوز فوق نمارق رستم : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام »[34] .

فأنظر أي بلاغة جرت على لسان هذا الرسول ، وأي فصاحة سجلت هذه المعاني التي صورت حقيقة الجهاد وغرضه . أننا لا نكون مغالين إذا قلنا إنَّ النثر القولي قد حقق في فنية مؤثرة خدمة الدعوة ، وكان دوره في هذا المجال لا يقل عن دور الشعر الذي رأيناه فيما سبق .

مجال الكتابة : ـ

وأما الكتابة فإنها من حيث فنية الأسلوب في درجة أقل من درجة الشعر والخطابة ، وذلك أن العرب بعد الاسلام لم يجدوا موروثاً أدبيًّاً فيها صدر عن العرب ما قبل الاسلام ، فبالرغم من ورود أخبار إلينا تشير إلى أن العرب قبل الاسلام قد استخدموا الكتابة في مجال الرسائل الديوانية والرسائل الأخوانية فإنه لم يصل إلينا منها شيء مادي يمكن أن نستدل به على طرقها وأساليبها ، ولا نظن أن المسلمين قد وقفوا على موروث أدبي فيها حتى يقفوا على ما فيها من أساليب فنية ، ولكن مع ادراكنا لهذه الحقيقة فإن العرب بعد الاسلام قد أفادوا من الكتابة في الرسائل الديوانيَّة ، ولا أدلَّ على ذلك من كتب رسول الله ﷺ وعهوده ومواثيقه ، إذ من الثابت الواضح أنه ما أن

---

(33) المصدر نفسه ج 5 ص 526.

(34) من حديث الشعر والنثر ط. دار المعاني العاشرة ص 25.

جاء الاسلام وقامت دولته في مدينة الرسول بعد الهجرة حتى بدأت الكتابة تأخذ طريقها في خدمة الدعوة الجديدة ، يتجلى ذلك في رسائل الرسول ﷺ التي وجهها إلى ملوك فارس والروم والحبشة يدعوهم فيها إلى الاسلام ، بيد أننا حين ننظر إلى هذه الرسائل من الوجهة الفنية الأدبية نجد أنها لم تأخذ طابع الصناعة الفنية في الرسائل الذي عرف فيما بعد عن المسلمين وإنما أخذت سمتاً يُبَيِّن الغرض فحسب ، وهذا ما دفع الدكتور طه حسين إلى القول بأن « رسائل النبي ﷺ ورسائل الخلفاء من بعده كانت مختصرة لا يقصد منها إلا مجرد الأداء في غير تفنن أو إثارة لجمال فني خاص . . . وليس فيها هذا التفصيل أو المحاولات الفنية التي نجدها عند الشعراء من حيث الألفاظ »[35] .

ولكن مهما قيل في أمر هذه الرسائل من حيث الأسلوب فإنها قد سجلت بدءاً للكتابة في الدعوة إلى الإسلام خارج شبه جزيرة العرب ففي رسالته التي وجهها إلى هرقل الروم نجده يقول فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، السلام على من أتبع الهدى أما بعد . أسلم تسلم وأسلم يؤتك أجرك مرتين ، وأن تتول فإن إثم الأكّاديين عليك»[36] . وهي رسالة كما ترى خالية من الاثارة ولكنها أدت الغرض المرجو منها ، ومثلها رسالته إلى كسرى ملك فارس فقد جاءت محددة الغرض وذلك في قوله عليه السلام « أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس »[37] .

وربما كانت الرسالة الوحيدة التي نلمس فيها شيئاً من العناية في التحبير هي تلك الرسالة التي وجهها الرسول الكريم إلى النجاشي ملك الحبشة فقد راعى رسول الله فيها أنه يكتبها إلى ملك نصراني وإذا نراه يعني بذكر حقيقة عيسى بن مريم عليه السلام ، ويجعل ذلك تمهيدا لموضوع الرسالة المتمثل في دعوة النجاشي إلى الدخول في الاسلام والايمان بالرسالة المحمدية يقول رسول الله في رسالته « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سَلْمٌ أنت ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح

(35) ينظر تاريخ الطبري ج 2 ص 649 .
(36) المصدر السابق ج 2 ص 654 .
(37) المصدر نفسه ج 3 ص 652 .

الله وكلمته القاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه » ثم قال بعد هذا التمهيد الذي هيأ به نفس متلقي رسالته « أني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله »[38] .

وإذا كانت هذه الرسائل قد أدت خدمة للدعوة في خارج شبه الجزيرة فإنَّ ثمة رسائل أخرى قد أفاد منها رسول الله في خدمة الدعوة داخلها. وبخاصةٍ لدى القبائل البعيدة عن اقليم الحجاز حيث مركز الدعوة . ولقد أورد لنا الطبري جملة من الرسائل التي أرسلها رسول الله إلى بعض القبائل يدعوها إلى الاسلام ، منها تلك الرسالة التي وجهها إلى قبيلة جذام مع رفاعة بن زيد الجذامي ، وهي رسالة لم تخرج عن الطابع المألوف لرسائل رسول الله الذي يقصد منه أداء الغرض فحسب ، فقد جاء فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد أني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم ، ويدعوهم إلى الله ورسوله فمن أقبل فمن حزب الله ، وحزب رسوله ، ومن أدبر فله أمان شهرين »[39] .

لقد سجل رسول الله البداية للافادة من الرسائل الديوانية في خدمة الدعوة والدين ، فمضى خلفاؤه من بعده يكملون هذه البداية ، ويحققون من الرسائل الديوانية كل ما من شأنه أن يؤدي خدمة للدعوة أو امر من أمور دولة الاسلام فاستخدم هؤلاء الخلفاء هذا الفن الكتابي في شؤون الحكم وفي شؤون الدين ، يكتبون إلى قوادهم وإلى عمّالهم بما يرونه في تدبير الدولة . بل إن الرسائل الديوانية قد سجلت ازدهارا ملحوظا في عهد الراشدين بحيث أصبحت الحاجة اليها ملحة حين بدأت الفتوحات الاسلاميَّة ، وأصبح لزاما على قادة المسلمين الذين خاضوا حروب هذه الفتوحات أن يخاطبوا ملوك الامم الذين يقاتلونهم أو قوادهم . ولعل خير مثال في هذا الشأن الرسالة التي وجهها خالد بن الوليد إلى ملوك الفرس . حين كان قائدا لحرب العراق فقد جاء فيها « بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم، ووهن كيدكم، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرا لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم

(38) المصدر نفسه ج 3 ص 140 .
(39) المصدر نفسه ج 3 ص 770 .

ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب ، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »[40] .

وفي هذه الرسالة من العناية بالاسلوب ما يدل على أن تطورا قليلا حدث في صناعة الرسائل الديوانية بعد عصر رسول الله ﷺ ، ففيها تمهيد غايته هز نفسية هؤلاء الملوك وكسر صلفهم ، وفيها عناية بعرض الغرض ، كما فيها خاتمة لبست ثوب الوعيد والتهديد ، فهي أشبه في العناية بأسلوب رسالة القضاء التي وجهها عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري »[41] .

ومن ثم يمكن القول بأن دولة الاسلام في عهد النبوة والراشدين قد أفادت من الكتابة في خدمة الدعوة وفي أمور الدين والسياسة ، وأن هذه الافادة وإن بدت خالية من الاثارة الفنية في بادىء الأمر فإنها ظلت تتطور فترة بعد فترة حتى تحقق لها خدمة الاهداف العليا للاسلام من جهة وروعة الاسلوب والاثارة من جهة أخرى : ومن يقرأ الرسائل التي تبودلت بين الصحابة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ، وما تلاه من خلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما يدرك حقيقة هذا القول . والآن وبعد ما أوردناه من نماذج مختلفة في مجالات الأدب الثلاثة الشعر والخطابة والكتابة وعرضناه من تحليل فيها ، يمكن أن نسجل بكل اطمئنان أن هذا العصر من مرحلة رسوخ الدعوة وانتشارها قد حققت أحداثه انعكاسا من الأدب بما حقق خدمة جليلة لدعوة الاسلام بحيث استطاع أدباء المسلمين من شعراء وخطباء وكتاب أن يوظفوا جهودهم الأدبية وطاقاتهم الفنية لتحقيق هذه الغاية المتمثلة في رسوخ الدعوة وانتشارها غير أن هذه الأحداث التي صاحبت عهد النبوة والراشدين وانعكست في أدب ذلك العهد قد تلتها أحداث أخرى ، شهدها عهد بني أمية وعهد بني عباس وكان للأدب مجال فيها ، يؤدي من خلاله رسالته في رحلة الرسوخ والانتشار ولكن لهذا حديثا آخر إنْ شاء الله تعالى .

محمد عثمان علي
المحاضر بكلية التربية ـ جامعة الفاتح

---

(40) المصدر نفسه ج 3 ص 370 .

(41) ينظر الرسالة في البيان والتبيين ط عطوي بيروت ج 2 ص 237 وينظر دراستنا لها في كتابنا « في أدب الاسلام » ط دار الأوزاعي بيروت ص 290 وما بعدها .